مركز الرافدين للحوار
Al-Rafidain Center For Dialogue
R.C.D

ترجمات RCD

عشرة دروس خالدة من تراث آدم سميث

تأليف
نيكولاي وِنزِل

ترجمة
علي الحارس

تنويه

ان كل الاراء الواردة في هذا المقال تعبر عن رأي كاتبها

نبذة عن مركز الرافدين للحوار

يُعَدُّ مركزُ الرافدين للحوار RCD من المراكز النوعية في العراق التي تجمعُ على منبرها النخبَ السياسيةَ والاقتصادية والأكاديمية الناشطة في تداول الافكار البناءة، فهو مركز فكري مستقل (THINK TANK)، يعمل على تَشجِيعِ الحِوارات في الشؤون السِياسِيّةِ والثَقافية والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السِلْم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأداءها. و يمثل المركز فضاءً حراً يتّسِم بالموضوعية والحياد ويوظف مخرجاته لمساعدة صناع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

تأسس المركز في الاول من شباط (فبراير) 2014 في مدينة النجف الأشرف على شكل مجموعة افتراضية في الفضاء الالكتروني تضم عددا من السياسيين والأكاديميين ورجال الدولة التنفيذيين والقضاة والدبلوماسيين ورجال الدين، وقد تطورت الفكرة لاحقاً، ليتم إكسابها الصفة القانونية عن طريق تسجيل المركز في دائرة المنظمات غير الحكومية NGO التابعة للأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي.

يضم «مركز الرافدين للحوار RCD» اليوم كمشاركين في برامجه وفعالياته ونشاطاته أكثر من خمسة الاف عضو عراقي وعربي واوربي واسيوي من التوجهات السياسية والاختصاصات الأكاديمية كافة، اتفق فيه الجميع على اعتماد الحوار ركيزة أساسية لمواجهة المشكلات، وإنتاج حلول استراتيجية، تتناغم ورؤية المركز في بناء شرق اوسط جديد ومختلف ينطلق من عراقٍ مزدهرٍ. كما يعمل في اروقة المركز وضمن كوادره المتقدمة اكثر من 70 شخصاً فاعلاً ومن مختلف الاختصاصات قد توزعوا ما بين مجلس الادارة وهيأة المستشارين والباحثين وزملاء المركز والكادر الاداري فهم يتنافسون فيما بينهم من اجل تقديم النتاجات العلمية والثقافية والرؤى السياسية والاجتماعية والاقتصادية الرصينة التي تخدم الوطن والمواطن.

لم يكتفِ المركز بالتواصل الالكتروني، بل أقام مجموعة من النشاطات على أرض الواقع شملت عدداً من الندوات والمؤتمرات وورش العمل والجلسات الحوارية التخصصية والملتقيات السنوية وفي مجالات متعددة، كما عمد المركز الى الاهتمام بالنتاجات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تصدر في قارتي اوربا واسيا حاملاً على عاتقه ترجمتها الى اللغة العربية للاستفادة منها، فضلاً عن طباعة الكتب المؤلفة ذات الصلة بالواقع السياسي والثقافي والاقتصادي والامني، كما شرع بنشر سلسلة الاطاريح والرسائل الجامعية التي تعنى بالأمور التي تخدم الصالح العام فقد تمت طباعة مجموعة منها، كما اعد المركز مجموعة من استطلاعات الرأي الميدانية الى غير ذلك فضلاً عن اصداره مجلةً علمية محكمة تضم بين طياتها مجموعة من الابحاث والمقالات العلمية والثقافية تحت مسمى مجلة (رواقات).

فيما يعد ملتقى الرافدين (RCD-FOURM) معلماً بارزاً ضمن انشطة المركز والذي يعد الاول من نوعه في العراق، والاكثر سعةً وتنظيماً، ويهدف الى اثراء الحوار بين صناع القرار والخبراء في القضايا التي تهم البلد والشرق الاوسط، وتعزيز النقاشات بشأنها، وتبادل الخبرات وابرام الاتفاقيات ومذكرات التفاهم وآليات التعاون.

ترجمات RCD

عشرة دروس خالدة
من تراث آدم سميث

تأليف
نيكولاي وِنزِل
أستاذ الاقتصاد في جامعة (لاس هسبيريداس) الإسپانية

المعهد الأمريكي للأبحاث الاقتصادية (AIER)
6 نيسان/أبريل 2026

Ten Enduring Lessons from Adam Smith

By: Nikolai G. Wenzel
American Institute for Economic Research (AIER)

April 6, 2026

ترجمة
علي الحارس

يشهد هذا العام الاحتفال بالذكرى المئتين والخمسين لتأسيس الولايات المتّحدة الأمريكية، وليس من الغريب أن تقرأ في خضمّ ذلك الكثير من الكتابات التي تحتفل بالتراث الذي تركه آدم سميث. ولذلك فسيكون لهذه المقالة غرضان: احتفالي وعلمي؛ إذ سأعرض عشر مقولات لسميث ذات أهمّية خاصّة في عالمنا اليوم، وأسلّط الضوء على تراثه الذي ما زال راسخًا يتحدّى الزمن. وطالما أحببتُ تضمين هذه المقولات في محاضراتي، سواء كانت حول الأسواق، أو الاقتصاد السياسي، أو الاقتصاد المؤسّساتي، أو الأسس الأخلاقية للرأسمالية؛ فلا شكّ في أنّ سميث عالم متعدّد الأبعاد بفضل كتاباته المتنوّعة.

1. أفعال (اليد الخفية)

يقول سميث:

> **"عندما يدير المرء نشاطه الاقتصادي على نحو ينتج أعلى قيمة ممكنة، فإنّه لا ينتوي من فعله هذا سوى منفعته الخاصّة وحسب؛ وهو بذلك، في هذه الحالة والكثير غيرها، ترشده يد خفية لتحقيق هدف لم يكن في نيّته. ... عندما يسعى المرء لخدمة مصالحه الخاصّة فإنّه كثيرًا ما يسعى بذلك لخدمة مصالح المجتمع على نحو أنجع بالمقارنة مع ما يحصل حين ينتوي المرء خدمة مصالح المجتمع حقًّا. ولم يصل إلى علمي قطّ خبر عن منفعة كبيرة تحقّقت على يد من يدّعون ممارسة أنشطة اقتصادية لخدمة الصالح العمومي".**

ربّما يمكن القول بأنّ مفهوم (اليد الخفية) هو أبرز المفاهيم المأثورة عن سميث، واشتُهِرت المدرسة النمساوية في الاقتصاد باقتباسها منه في درسها الأساسي حول (النظام التلقائي)، وكان لأحد اقتصادييها بشكل خاص، وهو فريدريك هايِك، ملاحظة حول أهمّية الظاهرة التي "تنتج عن الفعل البشري، لا التصميم البشري"؛ ولكنّ ممّا يؤسَف له أنّ أنصار التدخّلية (تدخّل الدولة في شؤون الاقتصاد) ما يزالون يعتقدون، وبكلّ أصنافهم، بأنّهم قادرون على أن يحلّوا محلّ اليد الخفية للسوق.

2. الناس ليسوا بيادق على رقعة شطرنج

ولمفهوم (اليد الخفية) وجه آخر يتعلّق بالهندسة الاجتماعية والاقتصادية، إذ استطاع سميث أن يقدّم وصفًا سابقًا لأوانه حول الطبيعة النفسانية للمهندس الاجتماعي، أي: من يسمّي نفسه "خبيرًا" ويقوده الغرور إلى الاعتقاد بأنّه يستطيع إدارة عجلة اقتصادٍ ما بأكمله. يقول سميث:

"يميل (ممثّل النظام) إلى الاغترار بما يعتقد، وغالبًا ما يصل به الافتتان بالجمال المفترض لخطّته المثالية في الإجراءات الحكومية إلى حدّ رفض أيّ انحراف عن أيّ قسم منها، فيمضي نحو تطبيقها بقضّها وقضيضها دون أيّة عناية بمصالح وميول من يعارضونها. ويبدو أنّه في ذلك يتخيّل نفسه قادرًا على تنظيم شؤون الأفراد المختلفين في مجتمع كبير بالسهولة نفسها التي تحرّك فيها يد لاعب الشطرنج بيادقه على الرقعة، حيث ليس للبيدق مبدأٌ لحركته سوى ما تفرضه يد اللاعب؛ لكنّ رقعة شطرنج المجتمع البشري الكبيرة ليست كذلك، فكلّ بيدق له مبدأٌ للحركة يخصّه دون غيره، ويختلف كلّيًا عن القرارات التي يرغب بفرضها القائمون على تنظيم الأمور".

3. الفعل الجماعي لا يمكن فرضه

تتّصف مقولة "ممثّل النظام" السابقة بأنّها طويلة إلى درجة يمكن معها أن تنقسم إلى قسمين؛ ففي القسم الثاني يتأسّف سميث على العواقب غير المقصودة للهندسة الاجتماعية. وإذا كان من يضع السياسات يتحرّى الحذر ويحترم كلًّا من الطبيعة البشرية والمعرفة المحلّية، فإنّ نتيجة عمله ستكون تحسّنًا هامشيًا بالمقارنة مع الحال الراهن (وهذا هو أساس نظرية بيوكانن وتولوك حول الفعل الجماعي بواسطة الدولة). يقول سميث:

"إذا تلاقى هذان المبدآن وعملا في الاتّجاه نفسه، فإنّ لعبة المجتمع البشري ستمضي بسلاسة وانسجام، ومن المرجّح جدًّا أن تُتَوَّج بالسعادة والنجاح؛ أمّا إذا تضادّا أو اختلفا، فستمضي اللعبة بشكل مضطرب، ولا شكّ في أنّ المجتمع سيعاني أعلى درجات الفوضى في جميع الحالات".

4. الأسواق تنسّق الجهود

يشكّل مفهوم (تقسيم العمل) عند سميث مساهمته النظرية الرئيسية، ولكنّ هذا المفهوم ليس مجرّد نموذج اقتصادي يمكن لطلبة الاقتصاد الجزئي احتسابه بالاعتماد على جداول الإنتاج؛ إذ يرى سميث بأنّه أعظم من ذلك، فهو عنده (أداة للتعاون) من أجل التغلّب على المحدّدات التي يقف عندها الفعل البشري. يقول سميث:

"إن تقسيم العمل هذا، والذي يعود بالكثير من المنافع، لم ينشأ في الأصل من أيّة حكمة بشرية ... إنّه النتيجة الحتمية، وإن كانت بالغة البطء والتدريج، لميل محدّد في الطبيعة البشرية ... ميل البشر نحو التبادل والتقايض والتجارة في ما بينهم".

فتقسيم العمل يحلّ مشكلة اجتماعية، كما يوضّح سميث:

"والإنسان لا يمكنه العيش إلّا في مجتمع، وقد خُلِق مجهّزًا بطبعه لهذا الوضع. وكلّ فرد من أعضاء المجتمع البشري يحتاج إلى عون الأفراد الآخرين، وهو كذلك معرّض لأذاهم أيضًا. وعندما يأتي العون الضروري بشكل متبادل على أساس الحب، والامتنان، والصداقة، والتقدير، فإنّ المجتمع يزدهر ويسعد. وكلّ أعضاء المجتمع المختلفين تربطهم روابط وافقوا عليها قوامها الحبّ والمودّة، وكأنّهم ينجذبون بأجمعهم نحو محور مشترك من الأعمال الخيّرة المتبادلة.

ولكن حتّى إذا لم يُقَدَّم العون الضروري على أساس هذه الدوافع السخية غير الأنانية، وحتى إذا لم يكن هنالك بين أعضاء المجتمع المختلفين تبادل للحبّ والمودّة، فليس من الضروري أن نشهد الانهيار الحتمي المجتمع، وإن كان سيصبح بعدها أقلّ سعادة ومقبولية؛ فالمجتمع يمكنه العيش بأفراد مختلفين بفضل الإحساس بمنفعته، كما هو الحال بين التجّار، دون أن يكون هنالك أيّ تبادل للحبّ أو المودّة؛ فعلى الرغم من أنّه ليس من الضروري أن يكون لأيّ أحد واجب على غيره، أو أن يربطه الامتنان بأي شخص كان، فإنّ المجتمع يمكنه أن يستمدّ تماسكه من التبادل التجاري للأعمال الخيّرة وفقًا لتقييم متّفق عليه".

5. المصلحة الذاتية تنفع الجميع حقًّا

كان سميث متحمّسًا لقدرة الأسواق على التوفيق بين المحفّزات؛ وفي مقولة شهيرة أخرى يذكّرنا سميث بأنّ الأسواق تحوّل المصلحة الشخصية إلى انسجام عمومي، فيقول:

"إنّنا ننتظر الحصول على غذائنا لا بسبب طيبة اللحّام أو الخمّار أو الخبّاز، بل بسبب اعتناء كلٍّ منهم بمصلحته الشخصية".

وبصياغة أحدث، يذكّرنا كلام سميث بكلام ديردري ماكلاوسكي وآرت كاردِن (وكلاهما من باحثي مركز AIER)، ويكفي عنوان كتابهما للتدليل على المقصود: "دعني وشأني وسأثريك: كيف أدّت الصفقة البرجوازية إلى إثراء العالم".

6. المجتمعات غير المقيّدة تخلق الازدهار

من الحجج المستخدمة في وصف الصفقة البرجوازية مقولة الاقتصادي الفيزيوقراطي تورگو "دعه يعمل، دعه يمرّ"؛ أمّا سميث الذي درجت العادة دائمًا على نعته بأستاذ المشاعر الأخلاقية (دون

الاقتصار على لقب مؤسّس علم الاقتصاد الحديث) فلقد كان سبّاقًا إلى تبيين ما في (الصفقة البرجوازية) من منافع، بل أثبت أنّها أساس المجتمع الحرّ، وذلك في قوله:

"كلّ إنسان له الحرّية الكاملة في السعي خلف مصلحته الشخصية، بوسائله الخاصّة به، ما دام لا ينتهك قوانين العدل".

7. التعاون يربط البشر بعضهم ببعض

ألّف سميث أوّل كتبه المهمّة (نظرية المشاعر الأخلاقية [1759]) قبل حوالي عقدين من تأليف لكتابه الشهير (ثروة الأمم)؛ وبيّن فيه كيف أنّ الأسواق تعزّز المصلحة العمومية باللجوء إلى المصالح الشخصية وتوجيهها في مسار محدّد، وبذلك أوضح أنّ البشر في الأصل كائنات تعتمد على التعاون، حيث قال:

"مهما كان ما قد يبديه المرء من أنانية، فمن الواضح أنّ هنالك مبادئ في طبعه تجعله يهتمّ بمصالح الآخرين، وتجعل سعادتهم ضروريةً له، على الرغم من أنّه لا يحصل من ذلك إلّا على لذّة مشاهدة هذه السعادة".

8. المسؤولية الفردية وحدودها

أكّد سميث على أهمّية المسؤولية الفردية، ولكنّه كان أيضًا يتعامل بواقعية مع حدود ما يمكن للمرء أن يفعله؛ فحذّر بقوله:

"إنّ إدارة النظام الكوني العظيم هي مهمّة الإله، لا الإنسان. وهنالك مسؤولية أدنى شأنًا تقع على عاتق المرء، تتناسب أكثر بكثير مع ضعف قواه ومحدودية استيعابه، وهي العناية بسعادته، وسعادة أسرته وأصدقائه وبلاده؛ ولا يمكنه أن يبرّر تجاهله لهذه المهمّة الأدنى بحجّة انشغاله بالتفكير في المهمّة الأسمى".

وفي السياق نفسه جاءت كلمات لودفيگ ميزس في كتابه (الليبرالية [1927]): "الليبرالية [الكلاسيكية] ترسم حدود اهتمامها كلّيًا وحصريًا بالحياة الدنيوية والمساعي الدنيوية؛ أمّا مجال الدين فهو في مكان آخر غير هذا العالم. ولذلك فإنّ الليبرالية والدين يمكن لكليهما التواجد جنبًا دون أن يتماسّ مجالاهما". إنّ سميث، ومعه ميزس والتيار الليبرالي الكلاسيكي ككلّ، يقدّم النقيض للشخصية التي تحشر أنفها في شؤون إدارة الكون بوسائل دنيوية، سواء كانت من اليمين أو اليسار.

9. التواطؤ يهدّد التنافس

عبّر سميث عن قلقه من الدور السياسي لـ"ممثّل النظام"، ولكنّه كان يشعر بالقلق أيضًا من تواطؤ رجال الأعمال ضدّ المستهلك، عوضًا عن خدمة السوق بواسطة التنافس؛ إذ يقول:

"إذا التقى أصحاب المهن المتشابهة، وإن كان ذلك لأغراض التسلية والترفيه، فغالبًا ما تنتهي أحاديثهم إلى التآمر على عموم الناس، أو التحايل على نحوٍ ما لزيادة الأسعار".

ومع ذلك، حذّرنا سميث من جهود الدولة لمنع هذا التواطؤ، فقال:

"لا شكّ في أنّ من المستحيل منع حدوث هذه اللقاءات بقانون يمكن تطبيقه أو يتماشى مع الحرّية والعدل".

ولكنّه لم يترك المسألة دون حلّ، فاقترح زيادة حرّية التجارة، وإنقاص العوائق التي تثبّط المنافسة؛ فقال:

"ولكن إذا كان القانون عاجزًا عن منع أصحاب المهن المتشابهة من اللقاء، فينبغي عليه أيضًا أن لا يقدّم لهم أيّ عون في تسهيل حدوث هذا اللقاء، فضلًا عن إجبارهم عليه".

10. المؤسّسات توجّه النموّ الاقتصادي

إنّني مختصّ بالاقتصاد المؤسّساتي؛ ولقد دلفتُ إلى علم الاقتصاد من باب الانشغال بالتنمية الاقتصادية وإنهاء الفقر (أو تخفيفه على الأقلّ). وكنتُ مهووسًا مع الاقتصادي روبرت لوكاس بأمثال هذه المسائل (لكنّني لم أماثله في النجاح)، والذي علّق ذات مرّة على ملاحظة إثراء بعض البلدان دون غيرها، وسرعة نموّ بعضها وبطء الأخرى، بقوله: "لا أدري كيف يمكن للمرء أن ينظر إلى أرقام كهذه دون أن يرى بأنّها تمثّل إمكانيات. فهل هنالك ما يمكن للحكومة الهندية أن تفعله لتجعل الاقتصاد الهندي ينمو على نحو مماثل لنظيره في إندونيسيا أو مصر؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما الذي يمكنها أن تفعله بالتحديد؟ وأمّا إذا كان الجواب بالنفي فما الذي تحتويه 'الطبيعة الهندية' ليكون الأمر على هذا النحو؟ إنّ العواقب المترتّبة على رفاهية الإنسان في أمثال هذه القضايا تخلب الألباب، فما إن يبدأ المرء بالتفكير فيها حتّى يصعب عليه التفكير في غيرها".

والتنمية الدولية تثير مشاعر الغضب لسببين، أوّلهما أنّها مُنِيت بالفشل الذريع، وبالتحديد: ما زالت جهود "الإغاثة" الدولية تمثّل فشلًا كبيرًا متفاقمًا، فعلى الرغم من الجهود العقيمة لـ"ممثّل النظام"، استمرّت الأسواق بخطاها الوئيدة، وحدث انخفاض جذري في مستوى الفقر خلال القرنين الماضيين؛ أمّا السبب الثاني فهو أنّ (وصفة النموّ) شديدة الوضوح، وأحرزت النجاح أينما طُبّقت، من أمريكا وأوروبا الغربية إبّان أوائل القرن التاسع عشر، إلى الصين ما بعد ماو، والهند ما بعد (حقبة التراخيص)،[1] وفي كلّ بلد اعتنق العولمة والإصلاحات السوقية. وهي الوصفة نفسها التي قدّمها سميث في وقت مبكّر، في العام (1755) قبل عشرين عامًا من كتابه (ثروة الأمم)، وسبقت بأمد بعيد ترجمة مُثُل التنوير إلى سياسة اقتصادية (يُعتقَد بأنّ هذه المقولة وردت في محاضرة ألقاها سميث عام 1755، وقد وردت في ملاحظات دوّنها دوگلاس ستيوارت):

"إذا أردنا نقل الدولة من أدنى درجات التخلّف إلى أعلى درجات الثراء فلا نحتاج إلّا للسلم، وتسهيل الضرائب، وشكل مقبول من أشكال تطبيق العدل، والباقي سوف يتكفّل به المسار الطبيعي للأشياء".

ويمكن القول بلغة اليوم: إنّ السلم واضح، وكذلك الضرائب المنخفضة الشفّافة، أمّا "الشكل المقبول من أشكال تطبيق العدل" فربّما يمكن القول بأنّه يكافئ مفهوم (حكم القانون)، والذي يترابط بشكل وثيق مع النموّ والثروة. وخلافًا لسياسات الاقتصاد الكلّي المترفة، المفروضة من الأعلى إلى الأسفل على أيدي ممثّلي النظام، يقترح علم اقتصاد التنمية الجديد حلًّا جذريًا وبسيطًا يتمثّل بالتركيز على الاقتصاد الجزئي، والمؤسّسات، والمحفّزات، ونقل المعرفة في المدرسة النمساوية للاقتصاد.

لقد حذّرنا سميث ممّا يحدث عندما يقوم المغرورون من السياسيين وصنّاع السياسات بتجاهل الشروط الأساسية للنموّ الاقتصادي، حيث قال:

"إنّ أيّة حكومة تحاول الوقوف بوجه هذا المسار الطبيعي، فتجبر الأحداث على السير في مسارٍ آخر، أو تحاول تجميد تقدّم المجتمع في نقطةٍ ما، هي حكومة تخالف الطبيعة البشرية؛ وإذا استمرّت على هذا المنوال فلا بدّ لها من ممارسة القمع والطغيان".

والقمع يولّد الفقر، أمّا الحرّية فتولّد الازدهار.

1. حقبة التراخيص في الهند: مصطلح يشير إلى مدّة من الزمن في الهند (أوائل الخمسينيات - أوائل التسعينيات) تميّزت بالضوابط التنظيمية المرهقة التي كانت تشلّ النشاط الاقتصادي.[المترجم]

www.alrafidaincenter.com
009647826222246
alrafidaincent

alrafidaincenter.com
alrafidaincent
ص . ب 252

info@alrafidaincenter.com
مركز الرافدين للحوار RCD
العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغداد - الجادريـة - قرب تقاطـع ساحة الحريـة